مؤتمر
تحديات ما بعد الربيع العربي
تجمع الأصالة- مجلة البيان
المركز العربي للدراسات الإنسانية
ليبيا – طرابلس (٩ – ١٠) صفر ١٤٣٤هـ (٢٢– ٢٣) ديسمبر ٢٠١٢م

بحوث مؤتمر
تحديات ما بعد الربيع العربي

العولمة وتطور آليات الهيمنة

د.حسن الحميد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد، فهذه الورقات تتناول موضوعاً بالغ الأهمية يتعلق بظاهرة العولمة ومشروعها الرامي إلى الهيمنة والسيطرة على مقدرات وعقول ومفاهيم وقيم الشعوب في أنحاء الأرض، ويأخذ الموضوع أهمية خاصة في هذه الأيام، لما تمثله نتائج الربيع العربي من تحرر من أنظمة فاسدة ساهمت في تعطيل قدرات الأمة وتدمير مكوناتها الذاتية الدافعة، ما جعلها عرضة لآثار العولمة بشكل كبير في أكثر من مجال.

والله أسأل أن يوفقنا للصواب ويجنبنا الخطأ والزلل.

المقدمة ..

الصراع بين الحق والباطل.. نظرة تاريخية:

الصراع بين الحق والباطل قديم قدم البشرية، فمنذ أبى إبليس السجود لآدم امتثالاً لأمر الله عز وجل، بدأ يكيد له المكائد ليوقعه ويوقع مَن بعده مِن ذريته في المعاصي والكفر إن استطاع، وكان قتل ابن آدم لأخيه إيذاناً بانتقال معركة الحق والباطل من صراع بين آدم وإبليس إلى صراع بين بني آدم فيما بينهم، فمنهم تشكل فريق الحق وأهله، ومنهم فريق الباطل وجنده، والشياطين في ذلك تؤزهم أزاً.

وقد أخذ هذا الصراع الموغل في القدم صوراً متعددة عبر التاريخ؛ فمن صد عن سبيل الله بالكلمة،كالكذب والتكذيب والسخرية وإفساد ذات بين الموحدين، وغير ذلك، إلى استخدام الوسائل المادية كالتضييق في الأرزاق والنفي من البلاد والسجن والتعذيب بل والقتل. وإن كان هذا يحصل في التعامل الفردي داخل المجتمع الواحد، فقد كان يحصل مثله على مستوى الدول، بين دولة الحق ودول الباطل، وكان يبلغ ذروته بشن الحروب إما لنشر الحق ، أو لإطفاء نوره من قِبَل الدولة الكافرة.

ولم يختلف الأمر بعد أن استلمت الأمة الإسلامية راية التوحيد ممن سبقها، فتاريخ الأمة حافل بفتوحات بلغت مشارق الأرض ومغاربها لنشر نور الحق وبسط العدل والخير، وحافل كذلك بحروب حاول فيها أعداؤها في الشرق والغرب استباحة حرماتها والقضاء عليها وعلى دينها وإطفاء النور الذي حملت رايته. ولئن كانت هجمات التتر والمغول هي الأشرس والأقسى بما خلفته من ضحايا، فإن الحروب الصليبية كانت هي الأكثر تأثيراً في الأمة، نظراً لامتدادها قروناً عديدة، ولكون أصحابها يحملون عقيدة وفكراً، بخلاف الأولين الذين لم تطل هجماتهم كثيراً، ودخل كثير منهم في الإسلام حكاماً ورعية، حيث إنها

كانت أمة همجية بلا مرجعية دينية أو فكرية تذكر.

وبرغم أن الحرب مع الصليبيين كانت دُوَلاً إلا أنهم أدركوا في نهاية المطاف عندما خرجوا من ديار المسلمين يجرون أذيال الخيبة أن الانتصار على هذه الأمة وهزيمتها هزيمة نهائية لا يمكن أن يتم إلا بإبعاد أبنائها عن مصدر قوتهم وعزهم، وهو دين الله عز وجل وشرعه المطهر، وهذا هو ما ميز الحملة الصليبية في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي بدءً من حملة نابليون بونابرت مروراً بما تلاها من احتلال عسكري غربي لِجُلّ بلاد المسلمين مصحوباً بجيش آخر من المستشرقين والمنصرين من ذوي التخصصات العلمية المختلفة.

ولئن كان هدف صرف المسلمين عن دينهم إلى النصرانية يبدو بعيد المنال، فقد كان المخطط الجديد يقوم على تشكيك عوام المسلمين في الدين، وعلى إيجاد حالة من التبعية الفكرية والثقافية والأخلاقية السلوكية من الشعوب المستعمَرة للدول المستعمِرة، وكان السلاح الفتاك هو الشبهات والشهوات. وكانت الأداة هي جحافل المنهزمين من المثقفين ومن انفتح على العلوم والثقافات الغربية منهم.

وقد ظهرت ثمرات ذلك في وقت قصير نسبياً ؛ فقد تغير وجه عدد ليس بالهين من البلاد الإسلامية الكبيرة ذات التأثير على بقية البلاد، كتركيا وبلاد الشام ومصر والعراق وبعض حواضر المغرب العربي، وشهد النصف الأول من القرن العشرين تحولاً قانونياً وثقافياً واجتماعياً وسلوكياً كبيراً في هذه البلاد، بدءً من تنحية الشريعة الإسلامية وإحلال القوانين الوضعية بدلاً منها ، وسقوط الخلافة الإسلامية، مروراً بتصدر أرباب القلم من أدباء ومثقفين ومفكرين حملوا أفكاراً تغريبية وراحوا ينشرونها في المجتمع. ترعى نشاطهم في ذلك حكومات ما بعد الاستقلال التي انتصرت لأفكار منحرفة عن الدين والشرع ذات اليمين وذات اليسار، انتهاءً بنكوص عدد غير قليل من الناس –وبخاصة جيل الشباب– عن الدين وهو ما تجلى في التخلي عن العبادات وانحسار المظاهر الإسلامية، بحيث صار لا يؤم المساجد إلا كبار السن في الغالب وانتشر السفور والتبرج ، وكاد الحجاب أن يختفي.

لكن هذا لا يعني بحال أن الأمة قد استسلمت، فرغم الهجمة الشرسة على قيمها وثوابتها ومبادئها وأخلاقها، إلا أن سواد الأمة لم يتنكر لدينه وإن ضعف التزامه واعتزازه به، بل بقيت فئة صابرة مرابطة من أهل العلم والصلاح تسعى سعياً حثيثاً للمحافظة على ما بقي ، والعودة بالأمة إلى سيرتها الأولى؛ وقد كان بفضل الله وتوفيقه أن بدأت الأمة هذه العودة مع نهايات الستينات الميلادية، وبلغت ذروتها في الثمانينات

والتسعينات، وتمثلت في صحوة دينية شملت جل أطياف المجتمع وبخاصة في أوساط الشباب الجامعي، وبدأت الأمة تتعافى شيئاً فشيئاً من أمراض التغريب والهزيمة النفسية والثقافية التي نخرت في جسدها طوال سنين. وبرغم الحرب التي مورست على هذه الصحوة بمختلف الوسائل إلا أنها ظلت تشق طريقها وسط الأعاصير، حتى بدا للجميع أنها قد بلغت أشدها واستوت وصار يصعب القضاء عليها أو تجاوزها.

ثم جاءت ثورات الربيع العربي، وبرغم ما حملته من آلام وجراح إلا أنها حملت آمالاً كبيرة أن تكون بوابة تعبر منها الأمة مرة أخرى إلى واحة الشريعة تمهيداً لعودتها من جديد إلى واجهة الأحداث وقيادة الأمم ، بدل أن تكون تابعا لأعدائها وأعداء دينها. وإن مما لا شك فيه أن هذا ليس بالأمر الهين، وأن أعداء الأمس القريب والبعيد لن يقفوا موقف المتفرج، كما أن هناك كثيراً من التحديات والصعاب في سبيل تحقيق هذا الأمر؛ ومن هذه التحديات ما استجد من أساليب المغالبة وأدوات الاستعمار الجديد ، وفي مقدمتها العولمة وآثارها، وهو ما سنتناوله في الصفحات التالية بإذن الله.

العولمة.. التعريف والنشأة:

أولًا- التعريف: العولمة مصطلح حادث نسبة إلى العالَم، ويدور مفهومها حول الوجود العالمي، وغالباً ما يستخدم في السياسة والاقتصاد بمعنى النفوذ السياسي العالمي والمؤسسات الاقتصادية الدولية (الأخطبوطية) المتواجدة في أنحاء كثيرة من العالم ولها تأثير قوي ونافذ سواء في الشأن الاقتصادي أو السياسي في البلدان المتواجدة فيها(١).

وقد وقع اختلاف بين من تصدوا للكتابة في هذا الموضوع حول تعريف العولمة، ومرجع هذا في بعض جوانبه إلى كونها ما زالت في طور التكوين والتبلور وغير مكتملة الملامح والنتائج، ومرجعه كذلك إلى كونها تتعلق بالعديد من الجوانب، حيث إنها تدخل في الاقتصاد والسياسة والثقافة والإعلام وغيرها، لذا فقد قام د. حسن العمرواي على سبيل المثال برصد أهم تجلياتها ومظاهرها في هذه المجالات للخروج بتعريف شامل لها.

١ – المظاهر الاقتصادية:

اندماج أسواق العالم وترابطها بهدف توسيع دائرة تبادل السلع والخدمات وسهولة انتقال رؤوس

(١) انظر مقال العولمة في الإعلام، د. مالك بن إبراهيم الأحمد.

الأموال، وإزالة الحدود الجمركية بين الدول وسيطرة التكتلات العملاقة وشركاتها العابرة للقارات على الاقتصاد العالمي.

٢– المظاهر السياسية:

تدويل النظام الديمقراطي الليبرالي، تنامي الخطاب الحقوقي، تراجع الأنظمة الشمولية، تراجع سيادة الدولة الوطنية القومية لصالح الشركات المتعددة الجنسية، ظهور النظام العالمي الجديد على حساب نظام القطبية الثنائية.

٣– المظاهر الإعلامية :

تحول العالم إلى قرية صغيرة بفضل الثورة المعلوماتية، انسياب المعلومة والصورة بفضل الإنترنيت والأقمار الإصطناعية، اختزال الزمكان (الزمان–المكان).

٤– المظاهر الثقافية:

تدويل ثقافة المركز وطمس واختراق ثقافة الهامش عبر ترسانة إعلامية وتقنية ، تنميط القيم بما يناسب ثقافة السوق، تخطي الحدود الثقافية، إزالة الخصوصيات المحلية أو دمجها في إطار ثقافة كونية استهلاكية منمطة، تنامي ثقافة الصورة.

وبناء على ذلك فقد عرفها بأنها: (حلقة متطورة في مسار تطور النظام الرأسمالي وتهدف إلى تدويل نمط الإنتاج الرأسمالي والاندماج الكامل لدول العالم في إطار اقتصاد السوق وتحكم التكتلات الاقتصادية و الشركات المتعددة الجنسية في السياسة الدولية وإزالة الحدود بين الثقافات ودمجها وتنميطها في إطار ثقافة أحادية استهلاكية، عبر ترسانة من التقنيات وشبكة الاتصالات التي أصبح العالم معها قرية صغيرة)(١).

فيمكن القول بناء على ما سبق إن الغرض من العولمة هو سيطرة مجموعة متنفذة من أصحاب المصالح على مجمل النشاط الإنساني بما يحقق لهم مزيداً من السيطرة الاقتصادية والنفوذ السياسي، والتحكم في مجمل هذا النشاط بما يحقق مصالحهم، فهي الصيغة الحديثة للاستعمار وامتداد لها ولكن بمضمون أقوى.

ويرى كثير من الباحثين أن العولمة هي في حقيقة الأمر أمركة أو أن مآلها النهائي هو الأمركة، ويعرفها

(١) العولمة: المفهوم – السياق – الفاعلون – الآليات – فرص التنمية– المخاطر.

د. محمد أحمد السامرائي بناء على ذلك بقوله: العولمة هي أيديولوجيا تعبر بصورة مباشرة عن إرادة الهيمنة على العالم وأمركته، وقد حددت وسائلها لتحقيق ذلك في استعمال السوق العالمية أداة للإخلال بالتوازن في الدول القومية في نظمها وبرامجها الخاصة بالحماية الاجتماعية، وكذلك في إعطاء كل الأهمية والأولوية للإعلام لإحداث التغيرات المطلوبة على الصعيدين المحلي والعالمي(١).

ثانياً- النشأة: بدأ هذا المصطلح يُشكل خطوطه العامة في عقد الثمانينات من القرن الميلادي الماضي، وبرزت "العولمة" بشكل واضح خلال عقد التسعينات ثم سرعان ماتحولت إلى قوة من القوى المؤثرة في الحقائق والوقائع الحياتية المعاصرة، وقد ساعدها في ذلك تفكك الاتحاد السوفييتي كقوة عظمى وانهيار المعسكر الشرقي(٢). وبالتالي نهاية القطبية الثنائية وانفراد الولايات المتحدة الأمريكية بمصير العالم، وقد أدى سقوط جدار برلين لتأسيس خريطة سياسية جديدة وبالتالي لجغرافية تواكبها في الاقتصاد، وهو ما سيُعرف لاحقًا بالنظام العالمي الجديد.

وقد كان من أهم أسباب بروز وتمكن العولمة:

أ- تطور ظاهرة التركيز الرأسمالي وتنامي قوة الشركات العملاقة المتعددة الجنسية العابرة للقارات.

ب- تطور وسائل الاتصال والثورة المعلوماتية خلال النصف الثاني من القرن العشرين.

ج- إنشاء منظمة التجارة العالمية وتحرير التجارة الدولية وإزالة الحدود الجمركية وسهولة انتقال البضائع والخدمات ورؤوس الأموال بين الدول.

مخاطر العولمة:

حيث إن فلسفة العولمة تقوم على الاستحواذ والسيطرة من قبل الطرف القوي على الأطراف الأخرى، فإن هذا بحد ذاته يمثل خطراً على كل الأطراف الضعيفة على الساحة الدولية؛ لأنه يعني أن تكون تابعة في كل مجال تخضع فيه لضغوط العولمة السياسية والاقتصادية والثقافية، وهو ما يهدد في نهاية المطاف بذوبان هذه الأطراف وضياع استقلالها وخصوصيتها. ومثل هذا الخطر لا يهدد الأمة الإسلامية فحسب لكنه يهدد كل الدول والأمم الضعيفة اليوم، وهي ما يطلق عليها دول العالم الثالث أو دول الجنوب. وإذا لاحظنا أن

(١) العولمة السياسية ومخاطرها على الوطن العربي.
(٢) العولمة السياسية ومخاطرها على الوطن العربي، د. محمد أحمد السامرائي.

القوة والضعف أمران نسبيان فإن بعض هذه المخاطر لاسيما الثقافية منها تطال حتى تلك الدول التي تعد من الدول المتقدمة والشريكة في جني أرباح العولمة لكنها أضعف من غيرها داخل نفس المنظومة، ولهذا نجد كثيراً من الحركات والمنظمات المناهضة للعولمة في دول أوروبا؛ حيث تستشعر هذه المنظمات أن البلاد مهددة بالتبعية لأمريكا نتيجة ما يحصل من (أمركة) في كثير من النواحي، لاسيما الثقافية والإعلامية مما يهدد بضياع هوية البلاد؛ ولم يقف الأمر عند المنظمات الأهلية بل وصل إلى أعلى هرم السلطة التنفيذية، فهذا الرئيس الفرنسي الراحل فرنسوا ميتيران يعبر بوضوح عن موقفه السياسي والاقتصادي والثقافي قائلاً: "من يفقد ثقافته وهويته يفقد سيادته واستقلاله".

بل حتى في أمريكا نفسها نجد بعض المنظمات المناهضة للعولمة تنشط في عدة مجالات كالتنمية والبيئة وحقوق الإنسان، حيث ترى أن العولمة خطر كبير يهدد الإنسانية بمجملها، ولا يستثني حتى المجتمع الأمريكي نفسه منها، حيث لن يكون هناك مكان للضعيف أو غير المفيد لمنظومة العولمة، وهو ما يعني بالمحصلة القضاء على إنسانية البشر بالحرص على إيجاد مواطن بمواصفات خاصة تقضي إلى حد كبير على التنوع والاختلاف الفكري والثقافي.

فإذا كان الغربيون يخشون على ثقافتهم من العولمة بصيغتها الأمريكية، فحري بنا أهل الإسلام أن نخشى على ديننا وثقافتنا وأخلاقنا من هذا النظام المتوحش.

العولمة وآليات الهيمنة:

العولمة عملية اقتصادية في المقام الأول، ثم سياسية، ويتبع ذلك الجوانب الاجتماعية والثقافية وهكذا، وسوف نتناول فيما يلي الجهات التي تقف خلف العولمة في هذه المجالات في وقفات محددة تظهر مدى تغول هذه الظاهرة وسيطرتها وتأثيرها على كثير من المفاصل الحيوية في العالم بما يؤدي في النتيجة لوقوع الدول الضعيفة أسيرة لهذا النظام ومن يقف خلفه.

أولاً- الجانب الاقتصادي:

تقف خلف هذا الجانب مجموعة من المؤسسات والشركات ذات الطابع الدولي، بمعنى أنها تنتشر على رقعة المعمورة، وبعضها يتبع لمؤسسات أممية كصندوق النقد الدولي والبنك الدولي، وبعضها يتبع أفراداً ومجموعات اقتصادية كالشركات عابرة القارات، كما تقف خلفه مجموعة الدول المتقدمة صناعياً عبر سَنِّ

القوانين وعقد الاتفاقات والمعاهدات الداعمة للعولمة بكل أشكالها، وأبرز هذه الدول هي الولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد الأوربي، واليابان، وفيما يلي نذكر طرفاً من أدوار بعض هذه المؤسسات:

أ- البنك الدولي وصندوق النقد الدولي: ويشار إليهما كثيراً بعبارة "المؤسستين الأختين" ويرجع ذلك إلى تاريخ إنشاء كلٍ منهما فى عام ١٩٤٤ وذلك بهدف أداء أدوار تكميلية.

والمؤسستان تتبعان الأمم المتحدة وبدءا العمل في أعقاب الحرب العالمية الثانية.

أما صندوق النقد الدولي فهو المؤسسة المركزية في النظام النقدي الدولي، أي نظام المدفوعات الدولية وأسعار صرف العملات الذي يسمح بإجراء المعاملات التجارية بين البلدان المختلفة، ويمكن أن يستفيد من موارده الأعضاء الذين يحتاجون إلى التمويل المؤقت لمعالجة ما يتعرضون له من مشكلات في ميزان المدفوعات. وتتضمن الأهداف القانونية لصندوق النقد الدولي تيسير التوسع والنمو المتوازن في التجارة الدولية، وتحقيق استقرار أسعار الصرف، وتجنب التخفيض التنافسي لقيم العملات، وإجراء تصحيح منظم لاختلالات موازين المدفوعات التي تتعرض لها البلدان.

وأما البنك الدولي فالهدف العام منه هو تشجيع استثمار رؤوس الأموال بغرض تعمير وتنمية الدول المنضمة إليه والتي تحتاج لمساعدته في إنشاء مشروعات ضخمة تكلف كثيرا ، وتساعد في الأجل الطويل على تنمية اقتصاد الدولة. وبذلك تستطيع أن تواجه العجز الدائم في ميزان مدفوعاتها. ومساعدةُ البنك تكون إما بإقراضه الدول من أمواله الخاصة، أو بإصدار سندات قروض للاكتتاب الدولي.

وفى الكثير من الحالات تعمل المؤسستان معاً بهدف التأثير على سياسات الحكومات المقترِضة، علاوة على أن القدرة على الحصول على القروض من إحدى المؤسستين يعتمد إلى حدٍ كبير على الالتزام بإجراء إصلاحات محددة أو اتخاذ إجراءات معينة تتطلبها المؤسسة الأخرى، أي أن الحكومة تصبح مطالبة بالالتزام بشروط إحدى المؤسستين حتى تتمكن من الحصول على التمويل من المؤسسة الأخرى، وفي نفس الوقت تلتزم بتوصيات الصندوق من حيث السياسات، وهذا الأسلوب من شأنه منح الصندوق سلطات هائلة يتحكم بها فى إمكانية حصول الدول على التمويل الخارجي.

في سياق العولمة فقد أصبحت هاتان المؤسستان من الضخامة والقوة، بحيث إنهما أصبحتا قادرتين على فرض توصياتهما وقراراتهما وتوجيهاتهما على كثير من دول العالم، وقد كان للالتزام بهذه السياسات نتائج

مؤسفة، حيث حصلت كثير من الاضطرابات في بعض البلدان نتيجة إلغاء الدعم عن بعض السلع الأساسية والوقود –التزماً بخطة الإصلاح الاقتصادي من صندوق النقد– ما أدى إلى موجات عنف وشغب قتل فيها بعض الأشخاص في العقد الماضي، كما في اليمن والأردن وغيرهما.

ومع ارتفاع ديون الدول النامية في حقبة السبعينات الميلادية من القرن الماضي ارتفع ما يجب سداده منها، حتى وصلت فوائد هذه القروض إلى أكثر من نصف ما يجب سداده سنوياً وحين عجزت بعض الدول النامية عن السداد، كما عجزت مصر في الثمانينات، قام البنك والصندوق الدولي بجدولة ديون كثير من هذه الدول، وبهذه الجدولة يتم توزيع أقساط الدين على عدد أكبر من السنوات مع زيادة فائدة أخرى على الأقساط الجديدة، وتكون فائدة التأخير هذه أكبر من سعر الفائدة الأصلي الذي تم به الإقراض، وتدور الدائرة مرة أخرى.

وعندما يعجز البلد عن السداد عجزاً مطلقاً تتدخل المنظمات الدولية لتتولى هي بنفسها تنظيم ماليته وإصلاح نظامه الاقتصادي، فصندوق النقد الدولي يعنى ببرامج التكيف وسياسات الإصلاح النقدية والمالية، والبنك الدولي يعنى بدفع التنمية وبالتالي تتدخل الدول الغربية –كممول أكبر لهاتين المؤسستين– في كافة شئون الدولة النامية؛ الاقتصادية والتعليمية والسياسية والثقافية. أي تتدخل في شئونها السيادية.

ب– الشركات عابرة القارات أو متعددة الجنسيات:

وهي شركات احتكارية عملاقة شكلت نتيجة للتحالفات عابرة القارات بين الشركات الصناعية والمالية والخدماتية العاملة في كل من أوروبا وأمريكا واليابان، وتقوم هذه الشركات بإعادة رسم الخارطة الاقتصادية العالمية وزيادة سيطرتها وتحكمها في الأسواق العالمية وتوجيه سياساتها(١).

إن القوة الاقتصادية والمالية التي تمثلها الشركات متعددة الجنسيات خاصة مع اتجاه بعضها نحو الاندماج والتكتل في كيانات أكبر، تسمح لها بممارسة المزيد من الضغط على الحكومات وبخاصة في العالم الثالث، والتأثير على سياساتها وقراراتها السيادية، حيث إن رأسمال شركة واحدة من الشركات العالمية العملاقة يفوق إجمالي الدخل القومي لعشر أو خمس عشرة دولة إفريقية مجتمعة، وهو ما يجعل هذه الكيانات في وضع أقوى من الدول.

(١) د. محمد أحمد السامرائي، العولمة السياسية ومخاطرها على الوطن العربي نقلاً عن عبد الخالق عبد الله، "العولمة: جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها"، مجلة عالم الفكر، العدد ٢٧، كانون أول، الكويت، ١٩٩٩، ص٨٤.

ويذكر الأستاذ سليمان الحكيم عدداً من المعلومات المذهلة عن القوة الاقتصادية الهائلة لهذه الشركات، فمن ذلك:

– يعتقد الاقتصادي هوارد بيرلوتر أن العالم قد أصبح تحت هيمنة عدد من الشركات الدولية البالغة الضخامة التي يتراوح عددها بين ٥٠٠ و٦٠٠ شركة، وهي المسؤولة عن القسم الأكبر من الإنتاج الصناعي العالمي.

– إنتاجها يزيد بمعدل يبلغ نحو ضعف معدل نمو الاقتصاد الداخلي للدول الصناعية المتقدمة.

– قدّر باحثو جامعة هارفارد أن القيمة المضافة التي حققتها الشركات عابرة القارات خلال عام واحد بلغت حوالي ١/ ٥ إجمالي الإنتاج الوطني لكل دول العالم.

– من المتوقع أن يكون لهذه الشركات في منتصف هذا القرن ملكية ما لا يقل عن ثلثي مجموع الأصول الثابتة في العالم بأسره، وأن تقوم بإنتاج أكثر من نصف الإنتاج العالمي.

ويقول الأستاذ عطية فتحي الويشي: أصحاب القمة (٢٠٪ من سكان الأرض) يستحوذون على ٨٥٪ من الناتج القومي لكل أمم العالم مجتمعة، وعلى ٨٤٪ من التجارة الدولية، وعلى ٨٥٪ من المدخرات؛ ويضيف: طموح الهيمنة الاقتصادية في إطار النظرية العدوانية (تصادم الحضارات) يتبلور في منظومة الشركات العابرة للقارات ، التي لا تعتمد في أنشطتها، وكل تعاملاتها الكونية، أي معايير أخلاقية ذات بعد إنساني راسخ ورشيد، بل إن هذا الطموح يتأسس على فكرة تكييف المعايير الدولية أو الحضارية حسبما تكمن مصالح أصحاب هذه الشركات وأغراضهم، تلك التي تتجاوز بأي حال كثيراً من حدود وظيفتها الاقتصادية(١).

إن هذه الشركات تفرض شروطًا باهظة ومجحفة على دول العالم الثالث النامية، مقابل تقديم رؤوس الأموال الأجنبية إلى هذه الدول، ولا تقوم بالاستثمار فيها إلا بشروط تحقّق لها أرباحا أعلى بكثير من تلك التي تحصل عليها من الاستثمار في الدول الصناعية المتقدمة، كذلك فإن ما تقيمه من مشروعات في البلدان النامية ليست ذات أولوية عالية في التنمية، مثل: النشاطات السياحية والمصرفية والتجارية، وحين تهتم هذه الشركات بالصناعة، فإنها تنتج سلعًا لا تستجيب لاحتياجات الناس، وسلعًا ليست في متناول دخولهم، وإنما

(١) الوعي الإسلامي الكويتية عدد ٥٣٢، ٣/ ٩/ ٢٠١٠.

تستهلكها الأقلية الغنية.

ويذكر الأستاذ عطية نتائج تقرير نشرته الأمم المتحدة حول [الشركات متعددة الجنسيات والتنمية العالمية] كان من أهم ما أشار إليه ما يلي:

١ ـ استحالة الانسجام بين استراتيجية الشركات العابرة للقارات، واستراتيجية التنمية في أي بلد من البلدان النامية.

٢ ـ أن هذه الشركات تفرض شروطاً مجحفة على دول العالم الثالث مقابل استثمار رؤوس أموالها في هذه الدول، الأمر الذي يقضي على أي إمكانات للتنمية الذاتية في البلدان النامية.

٣ ـ يشكِّل نقل التكنولوجيا إلى بلدان العالم الثالث بوساطة الشركات العابرة للقارات أداة استغلال وتحكُّم؛ نتيجة لما تحصل عليه هذه الشركات من أثمان باهظة مقابل ما تقدمه من تقنيات غير ملائمة، ومعرفة تقنية وهمية في معظم الأحيان، الأمر الذي يؤدي إلى قتل روح الإبداع والتجديد لدى البلدان النامية.

٤ ـ تعمل الشركات بكل الطرق لتوجيه سياسة البلد النامي بما يخدم مصالحها، بغض النظر عن مصالح البلد المعني.

٥ ـ استحالة قيام مساومة متكافئة بين الطرفين(١).

ثانياً– الجانب السياسي:

وهو من أخطر أنواع العولمة، وهو المؤثر في غيره من صورها ؛كالعولمة الثقافية والاجتماعية والراسم لخطوطها العريضة والساعي لفرضها في العالم، وعندما نتكلم عن العولمة السياسية فإننا لا نستطيع بحال أن نفصلها عن العولمة الاقتصادية. يقول الباحث الحبيب الجنحاني متحدثاً عن الشركات عابرة القارات: "لكي يدرك المرء القوة المالية لهذه الشركات يكفي أن نذكر الأمثلة التالية : يفوق رقم معاملات جنرال موتورز الدخل الوطني الخام للدنمارك، ويفوق رقم معاملات فورد الدخل الوطني لجنوب إفريقيا، ويفوق رقم معاملات شركة تويوتا الدخل الوطني للنرويج ... هل نستغرب بعد ذلك أن يتحول قادة الدول إلى خدم

(١) عطية الويشي، نقلا عن **Multinational Corporations and word Ddevelpoment . United nations. new york** ١٩٧٣.

في بلاط أميةِ رأس المال"(١).

فالتزاوج بين السياسة والاقتصاد والمال قديم جداً في التاريخ البشري، ومن تأمل في قصص القرآن الكريم، وجد أن المتحكم في سياسة الأقوام ومواقفهم من النبيين هم الملأ المستكبرون المترفون ، ومن أمدهم الله بالأموال والبنين، وهذه كلها عوامل ومظاهر للقوة الاقتصادية، ويبدو التزاوج بين السياسة والاقتصاد في أجلى صوره في قصة قارون.

ونحن في عالم اليوم عندما نتكلم عن السياسة والاقتصاد لا يمكن أن نَغفَل عن كون الولايات المتحدة الأمريكية بالدرجة الأولى وبالتعاون مع حلفائها الأوربيين يرسمون ويديرون السياسات الدولية ولهم فيها اليد الطولى والتأثير الأكبر، وهم في الوقت نفسه يتحكمون بدرجة كبيرة بالمؤسسات الاقتصادية الدولية كصندوق النقد والبنك الدوليين، ولا يمكن أن نغفل هنا عن كون ثلثي الشركات عابرة القارات شركات أمريكية والثلث الباقي تتقاسمه أوروبا واليابان.

ذكر الأستاذ أمحند برقوق(٢) في مقال (العولمة السياسية): مجموعة من المحددات التأسيسية للعولمة السياسية منها :

١– ضرورة بناء تصور موحد و إلزامي لحقوق الإنسان لا تعترف لا بالثقافة و لا بالدين و لا تعترف بالحدود، و لا بالسيادة ولا بالاختصاص الداخلي للدولة.

٢– جعل الديمقراطية نظام الحكم الوحيد القادر على التكيف مع منطلقات العولمة.

٣– جعل الديمقراطية حقا يستخدم لتغيير الأنظمة السياسية باسمه، و يتدخل في الشؤون الداخلية باسمه.

٤– خلق آليات الرشادة و العقلانية السياسية عن طريق فرض فلسفة الحكم الراشد .

فمن هنا يظهر أن العولمة السياسية هي حركية تهدف لجعل العالم يحكم بنفس المنطق السياسي والمنطلقات القيمية المرتبطة بالتصور الغربي لحقوق الإنسان ، و يهدف لجعل كل الدول تحكم بمنطق

(١) نقلاً عن: العولمة ومقاربة الرفض، حركات الاحتجاج والمناهضة لوهمية العولمة، الأكاديمية العربية البريطانية للدراسات العليا.

(٢) أستاذ محاضر في العلوم السياسية (جامعة الجزائر) و المعهد الديبلوماسي و العلاقات الدولية (وزارة الخارجية) مدير مركز الدراسات الاستراتيجية والأمنية –الجزائر.

الديمقراطية المشاركاتية والحكم الراشد، في حال عدم تعارضها مع مصالح القوى المهيمنة.

وفي سبيل تحقق ذلك تسعى العولمة إلى تحويل المؤسسات الدولية (الأمم المتحدة ووكالاتها خاصة) إلى آليات الحكم العالمي مع تمكينها من فرض الخيارات العالمية على الدول ، متخطية بذلك الحواجز القانونية الخاصة باحترام الخيارات الوطنية للدولة بشكل لا يتوافق أساسا مع مبدأ السيادة. والذي يقف خلف هذه العملية هي القوة العظمى الوحيدة في عالم مابعد الحرب الباردة، وهي الولايات المتحدة الأمريكية حيث تعمد إلى استخدام قوتها ونفوذها لتوظيف الأمم المتحدة ومؤسسات التمويل الدولية مثل صندوق النقد والبنك الدوليين من أجل تحقيق مصالحها ومصالح حلفائها الغربيين بصفة عامة. ا.هـ بتصرف.

وفي هذا الجانب لا يمكن أن نغفل الدور الذي كانت وما زالت تلعبه بعض الهيئات والمنظمات التابعة للأمم المتحدة، مثل منظمة الأمومة والطفولة، ومنظمة الصحة العالمية، ومنظمة التربية والثقافة والعلوم (اليونسكو)، وغيرها من المنظمات التي تقوم بأنشطة على مستوى العالم وتعقد المؤتمرات ، وتحضِّر لاتفاقيات تنطلق في كثير من بنودها من أسس ثقافية مغايرة لما عليه ثقافتنا وقيمنا ومبادئنا المستمدة من الشريعة الإسلامية، ومن أمثلتها "مؤتمر السكان" في القاهرة، ومؤتمر "المرأة" في بكين، واتفاقية سيداو الخاصة بالقضاء على صور التمييز ضد المرأة، وهذا بالطبع لا يعني أن كل ما تقوم به هذه المنظمات مرفوض، ولا يعني كذلك أن كل ما دعي له من مؤتمرات أو اتفاقيات يمثل انتهاكاً وتعدياً أو مخالفة لما هو مقرر في الشريعة الإسلامية، لكنه من باب الإشارة إلى سلبياتها فحسب، وإلا فإن المشاركة بما يحقق مصلحة الإسلام والمسلمين ؛ سواء بتعظيم المكاسب أو تقليل الخسائر أو التصدي لبعض القرارات المشبوهة أمر مطلوب.

ثالثاً– الجانب الثقافي: اختلفت تعريفات الكتاب للثقافة اخلافاً كبيراً، ومن تعريفاتها الشائعة تعريف الدكتور محمد علي حوات، حيث يعرفها بأنها: منظومة متكاملة، تضم النتاج التراكمي لمجمل موجات الإبداع والابتكار التي تتناقلها أجيال الشعب الواحد، وتشمل بذلك كل مجالات الإبداع في الفنون والآداب والعقائد والاقتصاد والعلاقات الإنسانية، وترسم الهوية المادية والروحية للأمة لتحديد خصائصها وقيمها وصورتها الحضارية، وتطلعاتها المستقبلية ومكانتها بين بقية الأمم(١).

فالثقافة وفق هذا التعريف مكون رئيس من مكونات أي أمة، وعامل مهم في تحديد خصوصيتها واستقلالها عما سواها من الأمم، والمحافظة عليها ينبغي أن تكون هماً يجمع كل أبنائها ؛ لأنه العاصم لها من

(١) إشكاليات الثقافة في عصر العولمة، أحمد دعدوش.

الذوبان في غيرها أو التبعية له.

أما العولمة الثقافية فتعني الانتشار الثقافي الفكري لجهات ومؤسسات دولية (أغلبها أمريكية) ليصبح لها أثر ملموس في الجانب الثقافي لدى الكثير من المجتمعات حول العالم من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب(١)، فهذا النوع من العولمة يعد من أخطر وأهم مظاهر العولمة المصاحبة للعولمة الاقتصادية، ذلك أن تحقيق أهداف المؤسسات الاقتصادية النافذة في إيجاد أسواق واسعة لتصريف منتجاتها والمحافظة كذلك على مصادر المواد الخام واستمرار تدفقها على البلاد الصناعية يستلزم تنميط ثقافة الاستهلاك في الأسواق العالمية وجعلها مرتبطة بنوع وكمية المنتجات التي تقوم تلك المؤسسات بدعمها أو إنتاجها وتسويقها حول العالم، وبالتالي تفريغ الثقافات المختلفة من محتواها وصبغها بالمحتوى الغربي بكل تجلياته ومظاهره.

ورغم أن العولمة الثقافية تهدف إلى تفريغ الثقافات الأخرى المختلفة عن الثقافة الغربية من محتواها، وإبدالها بقيم الثقافة الغربية عموماً، إلا أن (الأمركة) تظهر في هذا الجانب من جوانب العولمة أكثر من أي جانب آخر، وقد مر معنا معاناة حلفاء أمريكا أنفسهم من هذا الأمر؛ و(يشير المؤرخ الأمريكي "رونالد ستيل" إلى أن الثقافة التي ستسود العالم في زمن العولمة

هي ثقافة أفلام الحركة، والعنف، والجريمة، والجنس وأن الولايات المتحدة غير جادة في تقديم ثقافة راقية للعالم.

وبناء على ذلك تمثل العولمة خطرا على الثقافة الإنسانية عموما، والعربية والإسلامية على وجه الخصوص)(٢).

يقول الباحث أحمد الحليبي: (العولمة في مسارها الثقافي لا تعدو أن تكون أسلوبًا جديدًا من الغزو الثقافي، إلا أنه أكثر خطراً، وأشد عمقا من الأساليب السابقة؛ لكونه يعتمد على المعلومات المتدفقة والسرعة المتناهية والتقنية الحديثة التي تعد نتاجا ظاهرا للثورة العلمية والتكنولوجية الحديثة، وللتطورات المذهلة في وسائل الاتصال عبر الحواسب الآلية والأقمار الصناعية وشبكة الإنترنت، ويمثل ذروة أساليب التأثير البشري لما أحدثته هذه التطورات من تقارب بين المجتمعات وتداخل بين الأمم، وهيأته من فرص التلاقي

(١) العولمة في الإعلام، د. مالك بن إبراهيم الأحمد.
(٢) العولمة الثقافية رؤية تربوية إسلامية ، د. وليد احمد مساعدة و د. عماد عبد الله الشريفين.

والتأثير والانصهار)(١).

وتبدو السينما واحدة من بين أكثر الوسائل الناقلة للثقافة وأقدمها تأثيرا..

دور السينما :

يبرز دور السينما أكثر من غيرها من الوسائل الثقافية الأخرى، ومرجع ذلك أن صناعة السينما ازدهرت في بداياتها في أمريكا أكثر من غيرها من الدول، ومن أسباب ذلك أن السينما صارت وسيلة التسلية المفضلة فى أمريكا كلها، وانعكس ذلك فى بناء دور عرض بلغت درجة غير مسبوقة من الفخامة والرصانة، وكان دخول أوربا في الحرب العالمية الثانية التي أنهكتها لمدة أربع سنين سبباً في تقدم ملحوظ للسينما الأمريكية التي كانت بمنأى عن سعير الحرب، ولكي تضمن الشركات الصناعية الأمريكية احتكارها لتقنيات الفيلم اشترت حق استغلال التقنيات الأجنبية، واتفقت مع الشركات التى لم يتيسر شراؤها وتم توحيد أجهزة الصوت وتسويقها لكل الاستوديوهات وقاعات العرض الأوروبية ، وكانت النتيجة تحول الصوت الأمريكي إلى زئير وأصبح بالإمكان استمرار تبادل الأفلام بين مختلف البلدان لأن الأجهزة السينمائية كانت واحدة فى العالم كله.

يقول قاسم حول(٢): لم تكن السينما الأمريكية قد سيطرت على السوق اعتباطا منذ أن دخلت المصارف للإنتاج السينمائي في استثمار السيولة النقدية ؛ لأنها وضعت الأسس الإنتاجية السليمة وأسس التوزيع السليم، واليوم بدخول عصر العولمة فرضت لغتها على هذا الجهاز وسيكون السينمائيون مجبرين على العمل وفق أسس الإنتاج الأمريكية(٣).

وحيث سيطرت السينما الأمريكية على سوق السينما العالمية، فقد حرصت على نشر الثقافة الأمريكية عبر العالم، وما يدل على أهمية السينما واهتمام أصحاب المصالح بها كوسيلة من وسائل العولمة/ الأمركة، ما ذكره الدكتور محمد فتحي مؤلف كتاب "السينما والعولمة": كانت هيئة السينما المنبثقة عن المخابرات المركزية الأمريكية تمول المعارض والمهرجانات، وتستقطب الفنانين والمخرجين كما تملك هيئة السينما شبكة عمل وتوزيع تتمتع بدعم حكومي هائل مجالها ٨٧ دولة، وكانت هذه الهيمنة ورجالها يتدخلون فى مراحل إعداد

(١) العولمة الثقافية من منظور إسلامي، أحمد بن عبد العزيز الحليبي.
(٢) سينمائي عراقي مقيم في هولندا.
(٣) السينما والعولمة، جريدة الجزيرة، العدد ١٤٤، الإثنين ١٣ صفر ١٤٢٧.

الأفلام والأعمال الفنية والمسرحية بالحذف والتغيير والإضافة وفق استراتيجية محددة في أذهانهم تقوم على ترويج الثقافة الأمريكية والتغاضي عن العيوب والأخطاء الأمريكية الفاضحة(١).

ويقول أيضاً: إن أقل ما يمكن أن يقال عن تأثير ذلك هو انهيار التفاعل الثقافي المثمر بين بلدان العالم وتسييد أيديولوجيا غير معلنة ترسخها الشبكات العولمية بقصد الهيمنة على الثقافة والذوق والفكر والسلوك . الأمر الذي يؤدي بالضرورة إلى أن تصبح الغالبية العظمى من بلدان العالم تحت رحمة إعلام وتعليم وإبداع وتراث ولغة الشركات العملاقة الجديدة إضافة إلى النمط الاستهلاكي في الحياة وإعلام وأفلام الترفيه التي تغفل القيمة التنموية لكل المستحدثات الثقافية(٢).

آثار العولمة الثقافية: فيما يلي بعض هذه الآثار:

١ – فقدان الشعور بالانتماء لوطن أو أمة أو دولة، وبالتالي إفراغ الهوية الثقافية من كل محتوى.

٢ – التقليل من قيمة الثقافات المختلفة وفرض هيمنة ثقافة واحدة، هي الثقافة الأمريكية في الوقت الحاضر، كونها المالكة لمراكز توجيه آليات العولمة.

٣– إشاعة الذوق الغربي في الاستهلاك وفي ممارسة السلوك الاجتماعي مع الآخرين، بما يعود بالضرر البالغ على المسلم في دينه وأخلاقه وسلوكه وحركته في الحياة، وتساهم في هذا الجانب شبكات الاتصال الحديثة والقنوات الفضائية وبرامج الإعلانات والدعايات للسلع الغربية وهي مصحوبة بالثقافة الجنسية الغربية التي تخدش الحياء والمروءة والكرامة الإنسانية.

٤ – نشر الثقافة اللادينية وطمس الهوية الثقافية للأمة الإسلامية خاصة من خلال انتشار الأزياء والمنتجات الأمريكية والعالمية المتأمركة في كثير من الدول الإسلامية، لأن هذه السلع تحمل في طياتها ثقافة مغايرة تسحق ثقافات الأمم المستوردة لها، وظهور اللغة الإنجليزية على واجهات المحلات والشركات، وعلى اللعب والهدايا وعلى ملابس الأطفال والشباب)(٣).

الجانب الإعلامي: لعب الإعلام دوراً كبيراً في كل الصراعات منذ القدم، وقد شن كفار قريش –على بدائية الوسائل يومئذ– حرباً ضروساً على الإسلام وعلى نبيه صلى الله عليه وسلم، فاتهموه –حاشاه–

(١) أحمد هريدي، السينما والعولمة يكشف علاقة السينما الأمريكية بالمخابرات، نشر في المدينة يوم ٠٢ – ١٤ – ٢٠١٠.
(٢) السابق.
(٣) أثر العولمة الثقافية على مواطني الضفة الغربية، ديانا حاج حمد.

بالكذب والسحر والكهانة والجنون، وزعموا أنه بسحره يفرق بين الرجل وزوجه، والرجل وأبيه، وقد كانوا يشيعون هذا بين الحجيج في الموسم لينفروا عنه صلى الله عليه وسلم، وقد كانت هذه الحرب تؤتي أكلها أحياناً وتفشل أخرى.

وفي العصر الحاضر ومع الثورة العظيمة في مجال الاتصالات ودخول الفضائيات والإنترنت كوسائل إعلامية جديدة ذات تأثير وانتشار واسعين، فقد زادت أهمية الإعلام بصورة أكبر، نتيجة الانتشار الكبير لهذه الوسائل وسرعة إيصال الرسالة الإعلامية، ووقوع كثير من المتلقين أسرى لوسائل الإعلام التي تستخدم الأسلوب المبهر، لاسيما وقد صار الإعلام اليوم إعلام الصورة، حيث نجد الحملات الإعلامية تقوم أساساً على بث المادة المطلوب مشاهدتها بأسلوب ووقت محددين مع انتقائية في اختيار الصور، بل أجزاء منها بما يخدم الرسائل المطلوب إيصالها، وهو ما يجعل المتلقي على استعداد لأخذ كثير منها دون مناقشة أو محاكمة عقلية.

وقد ضاعف من هذا التأثير أن الشركات الإعلامية الكبرى في العالم لجأ كثير منها إلى التكتل وإلى الاستحواذ على كثير من المؤسسات الإعلامية، بحيث صار الإعلام العالمي اليوم في قبضة مجموعة قليلة من الشركات الضخمة التي ينتمي جلها لأمريكا بالدرجة الأولى ثم أوروبا بدرجة ثانية، وعندما نجد العوائد الهائلة لهذه الشركات، مع ملاحظة أن رسالتها الإعلامية تخدم في المحصلة فكرة العولمة وأهدافها، فإننا نجزم بأن هذه الشركات هي أداة أخرى من أدوات العولمة ولكن في الجانب الإعلامي، وهو مجال خطير جداً لأنه بمثابة رأس الحربة لمنظومة العولمة الشاملة، حيث تشكل وسائل الإعلام اليوم –لا سيما الأكثر شهرة والأوسع انتشاراً– منصات قصف ورافعات تخدم أهداف العولمة وتحقق أغراضها عبر توجيه الرأي العام في العالم لما يخدم مصالحها ويحقق أهدافها.

وفيما يلي نظرة سريعة على بعض الحقائق حول الشركات الإعلامية الكبرى(١):

– هناك ست مجموعات رئيسة كبرى تعمل في الأنشطة الإعلامية على مستوى العالم ولها حضور دولي كبير متفاوت من مؤسسة لأخرى، أربعة منها أمريكية، وواحدة أوروبية، وواحدة أسترالية أمريكية.

(١) مستفادة من بحث د. مالك بن إبراهيم الأحمد: العولمة في الإعلام.

– الدخل السنوي لهذه الشركات أكثر من ١٠٠ بليون دولار، وهناك أكثر من ٢٠ مؤسسة إعلامية دخلها يزيد على بليون دولار سنوياً.

– تمتلك هذه الشركات مئات الصحف والمجلات الكبرى وعشرات محطات التلفزة الإخبارية الأشهر في العالم مثل سي إن إن، فوكس نيوز، أي بي سي، سكاي نيوز.. وغيرها، وآلاف دور العرض السينمائي، ودور نشر الكتب.

– في دراسة تمت عام ١٩٩٦ حول الإعلام في ٤١ دولة كانت النتائج ما يلي:

* أكثر الأفلام مشاهدة أمريكية، و ٩ أشرطة من كل ١٠ أشرطة فيديو أمريكية.

* ٢٠,٠٠٠ مستهلك حول العالم في (١٩دولة) سئلوا عن الثقافة الإعلامية الأمريكية أجاب ما يقارب النصف منهم بأنها جيدة جداً أو ممتازة.

* ٩٠٪ من الإعلام في إيطاليا يسيطر عليه الإعلام الأمريكي.

* ٢٥٪ من سوق الكتب (٨ بليون دولار إجمالي دخل الكتب في العالم) تسيطر عليه ١٠

دور نشر وأكبرها بل أكثرها مملوكة للمؤسسات الإعلامية الدولية السابقة (تايم ورنر، بريكزمان، فياكم).

العولمة والربيع العربي: كَثُرتِ الرؤى والأقاويل فيما يتعلق بأحداث الربيع العربي؛ حول علاقة هذه الأحداث بمنظومة العولمة لاسيما السياسية منها، فمن مدع أن هذه الثورات ما كانت لتقوم إلا بدعم خفي من الغرب مستشهدين بما ذُكِر من علاقة بعض مؤسسات وجمعيات المجتمع المدني والحركات الشبابية في مصر وتونس ببعض الجهات الغربية التي كانت تقدم لها الدعم والتدريب على بعض الأعمال لتطوير عملها المدني، إلى جازم بأن هذه الثورات إنما كانت بمثابة المفاجأة لدول الغرب وأنها قلبت المعادلة في المنطقة العربية رأساً على عقب. وبغض النظر عن هذا الخلاف فإن الجميع متفق على أن الغرب لا يمكن أن يترك الأمور تسير في بلاد الربيع العربي بعيداً عن مصالحه دون أن يتدخل بكل الوسائل المتاحة كي تبقى تلك البلاد تدور في فلكه أو على أقل تقدير ليحافظ على أكبر قدر ممكن من المكاسب ويتجنب أكبر قدر من الخسائر.

لقد كان قادة ومفكرو التيار الإسلامي على الدوام في طليعة المحذرين من مخاطر العولمة وآثارها المدمرة

على الدين والأخلاق والثقافة والاقتصاد. وحيث إن نجم هذا التيار قد شهد خلال الثورات وبعد نجاحها صعوداً قوياً وسريعاً، حتى وصل إلى الحكم إما بالاشتراك مع غيره أو منفرداً ، أو حقق وجوداً كبيراً على الساحة السياسية بحيث يصعب تجاوزه، فإن الآمال معقودة على هذا التيار بعد توفيق الله عز وجل أن يسعى بكل ما أوتي من قوة إلى تحويل الأقوال إلى أفعال، وأن يكون للأمة بمثابة حائط الصد والدرع التي تتوقى بها ضربات العولمة على كافة الصعد، وأن يسعى بحكم موقعه الجديد في الحكم إلى تكوين جبهة عريضة بالتعاون مع بقية الدول الإسلامية للتنسيق والعمل المشترك للتصدي لمخاطر العولمة والاستفادة من إيجابياتها والتقليل من سلبياتها قدر المستطاع.

توصيات ومقترحات:

في سبيل تحقيق هذه الآمال فلا بد أولاً وقبل كل شيء أن يتذكر العاملون الغاية الأكبر التي يسعون لها وهي تحقيق رضا الله سبحانه وتعالى والتمكين لدينه، وألا ينسيهم موقعهم الجديد وانقلاب أحوالهم هذه الغاية، واضعين نصب أعينهم قوله تعالى: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } [الحج: ٤٠، ٤١]، وقوله: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [النور: ٥٥، ٥٦]. فلا بد من الإخلاص وطلب المعونة من الله والتوكل عليه، ذلك أن تعلق القلب بالله سبحانه وتعالى وطلب العون منه هو أول خطوات النجاح وينبغي أن يكون سابقاً لطلب الأسباب المادية التي أمرنا بالأخذ بها. وأما هذه الأسباب فإننا نقترح منها ما يلي:

١ – ضرورة الإدراك التام لحقيقة العولمة: وقد تكون التوصية بهذا الأمر محل استغراب بسبب ما قدمناه من تقدم التيار الإسلامي الصفوف في الماضي في التوعية والتحذير، لكن الاستغراب يزول عندما نتابع بعض التصريحات التي خرجت من قيادات إسلامية تتعارض مع بعض الثوابت الإسلامية التي ليست محل خلاف، فهذا ما يوجد مخاوف من كون بعض القيادات السياسية ترى الأمور بمنظار مختلف عن القيادات الفكرية ، ومقتضى السنن الربانية سواء في موضوع العولمة أو غيره.

٢– الثبات على المبدأ..والتفريق بين المتغيرات والثوابت: فمما لا شك فيه أن لكل مرحلة ظروفها، وأن بعض ما كان ممكناً ومتاحاً أو مطلوباً زمن المعارضة قد لا يكون كذلك عند ممارسة الحكم والدخول في تفاصيله، والسياسة فن قائم على الأخذ والعطاء ومراعاة المصالح والمفاسد، وقد يقتضى الأمر تقديم شيء من التنازلات أحيانا، ولكن هذا لا ينبغي أن يكون في الثوابت أو على حسابها، وهذا يستدعي وجود شورى على أعلى مستوى والاستفادة من كل الخبرات والطاقات الموجودة لتجنب الزلل.

٣– تقدير مواطن القوة والضعف بدقة: إن مقارعة نظام عالمي قائم ومستقر ومدعوم من أقوى الدول والمؤسسات اقتصادياً وسياسياً وإعلامياً ، وعسكرياً إذا استدعى الأمر ليس بالأمر الهين والسهل، لكن الثقة بالله والتوكل عليه تذلل كثيراً من الصعاب، والله سبحانه وتعالى غالب على أمره ، والأمر والتدبير بيده وحده، ونحن متعبدون بالعمل لا بالنتائج. إن التوكل الحقيقي لا بد له من الأخذ بالأسباب، ومنها أن نعلم مواطن قوتنا وحجم هذه القوة وكذلك مواطن الضعف وكيفية اتقاء آثارها، والأمر ذاته فيما يتعلق بأعدائنا؛ مواطن قوتهم وكيفية تحييدها ، ومواطن ضعفهم وكيفية النفاذ منها ، وبناء على ذلك يمكن وضع التصورات وبناء الخطط والقيام بالعمل.

٤– الموازنة والتفريق بين الممكن والمتاح: وهذه متعلقة بما قبلها ومبنية عليه، وهي نقطة جوهرية ومفصلية ينبغي أن تكون محل نظر واهتمام القيادات في المرحلة المقبلة في كل الجوانب، وليس فيما يتعلق بموضوع العولمة فحسب. إن فهم هذه المعادلة فهماً دقيقاً والتعامل معها بأسلوب ووسائل واقعية بعيدة عن الإغراق في الأحلام، وفي نفس الوقت دون تهوين من شأن الذات وقدراتها، كفيل بإذن الله بتخطي كثير من الصعاب والعقبات.

٥–تعزيز القيم والمفاهيم الإسلامية وإعادة غرسها: فقد عملت الأنظمة السابقة على تجريف القيم الأصيلة وحرف المجتمعات عنها إلى كثير من القيم الفاسدة، وقد آتت سنوات الأنظمة الفاسدة الطويلة أكلها إلى حد كبير في المجتمعات المسلمة. وإذا كانت هذه المجتمعات قد اختارت –اعتماداً على أصل فطرتها– الإسلام لتحكم به في الجملة، فهذا لا يلغي أنها في ممارساتها قد لا تحتكم لكثير من التفصيلات جهلاً أو حرمانا أو اتباعاً لشهوة. ولا يخفى أن تبني الإسلام جملة وتفصيلاً والتمسك به هو العامل الأهم في معركة الأمة مع أعدائها، وهو سبب النصر الأساس ؛ لأنه نصر الله الذي رتّب عليه النصر: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد: ٧].

٦– التصدي للعولمة الثقافية والإعلامية: وهي مهمة شاقة، لاسيما في ضوء تسلط المنظومة الإعلامية السابقة واستمرار عملها بما يخدم مصالح أعداء الأمة –الإعلام المصري الخاص اليوم أنموذجاً– وفي ظل المناخ (الديمقراطي) وإطلاق الحريات قد يكون من الصعب تحجيم هذا الإعلام عبر القوانين الرادعة، فضلاً عن الدور المؤثر والكبير لوسائل الإعلام العالمية، بالإضافة إلى ضعف الأدوات الإعلامية لدى التيار الإسلامي إذا استثنينا الأدوات التي تخاطب الملتزمين كالمساجد والقنوات الإسلامية والتي تبدو في كثير من الأحيان تمارس إعلاماً بعيداً عن الاحتراف وأقرب للهواية، فالتصدي للعولمة الثقافية والإعلامية مهمة ذات شقين: بناء الأدوات الإعلامية الفاعلة والمنافسة ، ومجابهة الأدوات المحترفة والراسخة ، ذات التمويل العالي.

٧– الاستفادة من العقول المهاجرة: وهذا ممكن بأكثر من وسيلة؛ منها محاولة استقطاب المسلمين العاملين داخل المؤسسات الغربية التي تعمل ضمن منظومة العولمة، للاستفادة من خبراتهم ومعلوماتهم ونصائحهم، أي محاولة إيجاد وسيلة تأثير داخل هذه المؤسسات، ومنها أيضاً استقطاب هذه العقول ودعوتها للعودة للبلاد للمساهمة في المشاريع الاقتصادية أو السياسية أو الإعلامية وغيرها.

٨– الدخول في تكتلات سياسية واقتصادية: فعالم اليوم لا مكان فيه للضعفاء كما يقال، وحيث يعمد الأقوياء إلى التكتل سياسياً واقتصادياً سواء على مستوى الدول أو الشركات عابرة القارات، فحريّ بدول الربيع العربي أن تسعى لإقامة تكتلات سياسية واقتصادية بعيدة عن سياسة المحاور التي مزقت الصف في العقود الماضية، ولا بد في هذا المجال من طمأنة بقية الدول العربية المتحفظة أو المتخوفة من صعود الإسلاميين، ومحاولة إيجاد جو من الثقة لمد الجسور وتحقيق التعاون والتكامل.

٩– التنسيق مع المنظمات المناهضة للعولمة: فهناك حول العالم كثير من المنظمات غير الحكومية المناهضة للعولمة بشكلها الحالي والمطالبة بعالم آخر أكثر إنسانية، سواء أكانت محلية أو إقليمية أو دولية، وتنشط في عدة مجالات كالتنمية والبيئة وحقوق الإنسان، ويمكن هنا تشجيع المنظمات القائمة في بلاد الربيع العربي –إن وجدت– بعد التأكد من عدم ارتباطها بمشاريع ومخططات خارجية مضرة، لأن جُلّ من يعمل في هذا المجال يحمل فكراً ليبرالياً أو يسارياً، ويمكن كذلك تشجيع تكوين مثل هذه المنظمات وعدم صبغها بصبغة فكرية معينة بل تكون جامعة لكل الأطياف المناهضة للعولمة، ومن ثم يتم عمل تنسيق بين المنظمات في الداخل والخارج تحت سقف القانون.

١٠– الدخول في اتفاقات مصالح ثنائية: وذلك مع الدول النافذة في منظومة العولمة والتي تسعى لشيء من الاستقلالية عن الهيمنة الأمريكية كفرنسا وألمانيا مثلاً، وذلك لتعظيم المكاسب وتقليل الخسائر، وهو ما يحتاج لحنكة سياسية وخبرة عالية في إدارة وتنظيم الاتفاقات بما يحقق هذا الغرض.

١١– محاولة التأثير على صناع القرار في أمريكا : وهذه دعوة قديمة أطلقتها العديد من الشخصيات والقيادات السياسية العربية في السنوات الماضية، وهي ضرورة إيجاد منظمة ضغط على صانع القرار الأمريكي، كما أن للدولة العبرية مثل هذه المنظمات والتي من أشهرها لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية (أيباك)، وبرغم صعوبة الأمر إلا أن طريق الألف ميل يبدأ بخطوة، لا سيما وأن الإمكانات موجودة لو توفرت الإرادة، سواء من حيث الدعم المالي أو العقول العربية المفكرة في أمريكا، أو الجالية العربية والأقلية المسلمة التي تبلغ حوالي ٧ ملايين في الولايات المتحدة وهو رقم لا يستهان به.

١٢– الاستفادة من تناقضات العولمة : في ذاتها ومنتجاتها ، ومناخ الصراع بين القوى المنتمية إليها ؛ لأن قانون التدافع يأبى استمرار الهيمنة من جانب واحد. وهانحن أولاء نرى بذوره في المواقف الدولية من ثورات الربيع العربي ، والصراع على المصالح الاقتصادية ، والانحياز للمتجانس دينيا ومذهبيا..

ختاماً:

فقد كانت هذه جولة سريعة بما يتناسب وطبيعة البحث ، أما ما يستحقه بما يتناسب وخطره فإن كل محور منها يمكن أن يكون موضوع ورقة مستقلة، وأملي أن تكون هذه الجولة قد عرضت للموضوع بما ينبه ويوقظ.

وفق الله الجميع لما يحب ويرضى، وأبرم لهذه الأمة أمر رشد ، يجمع شتاتها ويشد من أزرها.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته